افتراس اللحوم الآدمية

زيارة إلى التاريخ المقارن

وجدة: منشورات جسور ، ٢٠٠٤. (١٣٩صفحة)

الجزء الأول

د.عبد العزيز غوردو
باحث وكاتب
دكتوراه في الآداب تخصص: تاريخ الإسلام والحضارة
المملكة المغربية
ghourdou.abdelaziz@voila.fr

التاريخ هيكل عظيم وضع الإنسان الأول حجره الأساس، وساهم كل إنسان في إنجاز وتشكيل جزء منه، وعلينا نحن مواصلة البناء وإتمامه (معروف أن الإتمام غير الكمال). خلف لنا أسلافنا، فضلا عن الجزء المنجز حتى الآن، مواد البناء وأدواته التي علينا تطويرها، لكنهم خلفوا أيضا . وكما هو الحال عند كل بناء . ركاما هائلا من النفايات (المادية والمعنوية) علينا التخلص منها.

عن الافتراس الآدمي

- "وحده افتراس الآدمي يوحدنا ، اجتماعيا ، واقتصاديا ، وفلسفيا." Oswald Andrade
- "في عيون الفيلسوف ، الجريمة ليست أكل الآدمي ، ولكن قتله." Paul Brocca
- "افتراس الآدمي هو أكثر مظاهر الحنان تجليا." Salvador Dali
- "الإنسان طيب ، قال روسو ، إذن فلنأكله." Paul Léautaud

مقدمة

ثمة تنصيب جديد في هذه الدراسة ، يأمل أن يساهم في تحرير التاريخ من قدريته العمياء. قدريته الميكانيكية التي تجعل القارئ البريء يتميز من الغيظ عندما يقدم له المجذفون (أعني هؤلاء المؤرخين العاكفين على تفسير ألغاز التاريخ بالألغاز) خطاطة واحدة ، مكررة ، مبهمة ، مخجلة... يتشابك فيها الاقتصادي بالاجتماعي بالسياسي بالثقافي تشابكا تجزيئيا بليدا أعمى ، يضيفون كل مرة مياها جديدة لطاحونة القرف كيما تزيد من صريرها الناشز ، فيبحثون في التاريخ الإنساني بذهنية لا إنسانية. شيء ما يدور في الذهن ، يردهم دائما إلى مستنقع الرمال المتحركة لنفس العوامل إياها (اقتصادية/اجتماعية/ثقافية...) وكأنها قدرية محتومة ، رغم زعمها اللاّ قدري ، تخونهم في النهاية لكونها لا تتجرأ على اختراق هذه الآلية الاستسلامية ، فتعود إلى الإنسان ، ذي الأبعاد المركبة. صحيح يفعل فيه "الخارج" باقتصاده واجتماعه وثقافته... لكن "الداخل" أيضا يحركه ، لأنه إنسان.

لكل هذا ينبغي نزع الثقة عن هؤلاء المجذفين ، والبحث عن "الرموز" الفاعلة الرائدة عند الشروع في التأسيس لهذا الهيكل ، على أنقاض هياكلهم الورقية الخائبة البلهاء ، تلك التي ينبغي تقويضها بقوة وبلا رحمة ، قبل إعادة التأسيس (ثم التأثيث) بحجم حقيقي متين. ولأن التاريخ هو تاريخ الإنسان ، بغرائزه الخفية ، وتناقضاته المفرحة - المحزنة ، ووعيه المتقلب الخؤون ، فضلا عن إطاره الاجتماعي العام بتفاهاته اليومية العنيدة وروتينه العابر المكبل... لأن التاريخ هو كل هذا ، وجب إذن استحضاره كله عند التفكير في إعادة بناء هذا الهيكل ، حتى يستجمع التاريخ قوته ، أقصد وعيه وانسجامه ، فيستعيد بالتالي غايته.

لكن من منا كان مستعدا للتخلي عن دينه وديدنه الجارف ، عن هيكله المبني الناجز ، ويخوض في مغامرة تأسيسية جديدة غير مضمونة؟ من منا كان مستعدا للتسليم بما نصّبناه أصناما وأزلاما: الأسباب العميقة ، العوامل غير المباشرة ، البنية التحتية المحركة...؟ الأساليب والعبارات الجذابة التي ما ينبغي على كل مؤرخ "محترف" عاقل ، عارف بأصول مهنته ، أن يخلط بينها وبين السطحي ، والمزيف ، والعابر ، أي التافه. لكننا كنا نشرد بالذهن بعيدا ، وغالبا ، عن التاريخ الحي النابض. نبدأ بالتساؤل: "ما الذي حصل بالضبط؟" ثم نحلق بأجنحة متكسرة واهية حول أسبابنا العميقة التي لها هذه

القدرة السحرية على تفسير كل شيء، لكننا نكتشف في النهاية تعاستنا، عندما نستفيق مذعورين، بعد كل الجهد والمكابدة، بعد اللأي والمعاناة...، إلى أننا انتهينا إلى حيث ابتدأنا، فنتساءل في حيرة ودهشة: "لكن ما الذي حصل بالضبط؟"

هل على الباحث في التاريخ إذن، أن يستدعي دائما، بأسلوب منمط محنط، قد يتجمل ببعض الجمل البلاغية واللغة المحذلكة، هذه العوامل (الاقتصادية/الاجتماعية/السياسية...) العميقة والتحتية لتحليل وقائعه، حتى يريح ويستريح؟.. ألا يمكن أن نحاكم هذا الموروث، الذي يعمي عن الحق من خلال مسلماته التي لم تترسخ في "الذهنية التاريخية" إلا بكثرة التواتر والاجترار؟.. ألم يحن الوقت بعد للحظة الصدمة/الاختراق، التي حصلت على بقية العلوم، حتى تحدث في مجال التاريخ بغية تثويره؟.. هل لنا أن نركن، ونكتفي، بالتبويب المنصّب سلطانا على سببية تاريخية مزعومة، تستجدي استجلاء الغموض على بعض الوقائع، فلا تزيد على سحب الغموض على الباقي؟

هذه السببية الروتينية (الاقتصادية/الاجتماعية/السياسية...) المقنّعة المفضوحة، إن كانت سببا فعليا لشيء، فإنما لنفور القارئ/الباحث من تصورات تاريخية غير مستساغة، وقد آن الأوان لتأخذ حجمها الحقيقي ضمن "الجينوم" التاريخي.

أكيد أن الخطوة الأولى للطفل - وهو يتعلم المشي - تكون غير ناجزة تماما، لكنها مع ذلك خطوة أولى في طريق الألف ميل، تماما كالخطوة الحذرة هنا، ليس لأن المنهج المقترح مستحدث فقط ١، لكن لأن موضوع افتراس الآدمي أيضا ليس ناجزا فعلا. فهو موضوع مقرف، نما كالطحالب العفنة على ضفاف مستنقعات الأزمنة الرديئة الآسنة، فانزوى منسيا في هامش الذاكرات الجماعية.

لكن ليس من قبيل الاستحالة على الممارسة التاريخية الحذرة، أن تكشف "العلاقة السرية" المقنّعة التي تربط الواقعة بأسبابها من خلال تضييق الخناق على المنزوي في الذاكرة، على المعتم في "النص"، عبر المساءلة والاستنطاق، خاصة إذا كان النص منكبا على "المنسي" أو "المغيب". عرضا أو غرضا. في هذه المساءلة.

قطعا لا يمكن لموضوع يرد، غالبا، مندسا خجولا في "النص" (في سطر أو عبارة) أن يوفر ثراء نوعيا للمادة الخام المفترض تشكيلها، لذا ركزنا داخل "النص" على "غير المسطور" فيه، وقراءته قراءة مختلفة، نتمنى أن توصل بقراءات غيرها، متممة أو مراجعة لها، بغية تحقيق تراكم كمي نوعي على الموضوع ومنهجه المقترح. أما اختيار "التاريخ المقارن" فهو اختيار مؤسس له منهجيا، كما سيلاحظ القارئ، فضلا عن كونه يسد - نسبيا - ثلمة المادة المعرفية الشحيحة، غير أن المغامرة فيه - كما يعرف كل من امتهن التاريخ - مضنية وشاقة.

نقدم في هذه الدراسة ثلاثة نماذج لرموز السلطة الدافعة لولادة الحدث - والحدث هنا هو فعل الافتراس:

رمز يبدو جوّاني المنزع، ينبع من الداخل، من المشاعر والنفسانيات، ولو ظاهريا على الأقل، ونعني به رمز "اللذة". والرمز الثاني منزعه الخارج البراني، ولو ظاهريا أيضا، يبدو أكثر التصاقا بالمجتمع والثقافة، وهو رمز "الثأر". أما الرمز الثالث فموضوعي فيزيقي محض، هو رمز "الجوع".

هذا لا يعني أن الرموز الدافعة "للافتراس الآدمي" ثلاثة فقط، لكننا أردنا أن نعرض لثلاثة نماذج متباينة، عينة لموضوع الدراسة، على أن نترك بابها مشرعا لمن رام الكشف عن رموز جديدة لذات الموضوع.

الفصل الأول: رصد المفاهيم

- حول التاريخ المقارن.
- الكلبونية أو "افتراس اللحوم الآدمية".
- مفهوم افتراس اللحوم الآدمية.

حول التاريخ المقارن

معروف أن المقارنة تمكن من تحديد الشبه والاختلاف بين الأشياء والمواضيع وهي مقدمة رئيسة للتعميم. والمنهج المقارن عموما يعتمد على بحث وتفسير الظواهر الثقافية والاجتماعية والمعرفية انطلاقا من إبراز الأصول المشتركة أو القرابة التكوينية بين الظواهر.

طبق المنهج المقارن بصفة خاصة أوجست كونت في علم الاجتماع ("دروس في الفلسفة الوضعية" ١٨٣٠-١٨٤٢). وفي الفيلولوجيا (فقه اللغة) المقارنة تطور في ألمانيا على يد ياكوب جريم وأوغست فريدريك وأوغست شلايماخر، كما طوره فرديناند دي سوسير في سويسرا، وأعطاه دفعة قوية علماء اللغة الروس: بودوين دي كورتيني وأ. ن. فيسلوفسكي وأ. ك. فوستوكوف وف. ف. فورتانوف وغيرهم...

من أقدم من نبه للمنهج المقارن في مجال التاريخ الفيلسوف ومحلل اللغة الألماني ك. ف. همبولت (١٧٦٧-١٨٣٥) Karl Wilhelm Humbolt خاصة في مؤلفه "حول مهمة المؤرخ" (١٨٢١)، لكنه ظل أسير نظرية كانط الفلسفية رغم أنه كان يميل للمثالية الموضوعية في تحليله للتاريخ الاجتماعي. (ظل يعتقد بأن تاريخ البشرية لا يمكن أن يفهم من وجهة نظر علمية، بل يمكن استبداله بعلم الجمال).

سبق لدوركايم E. Durkheim أن نبه إلى أن التاريخ لا يمكن أن يكون علما إلا عبر التفسير، ولا يمكنه أن يفسر إلا عبر المقارنة. وفي سنة ١٩٠٧ كتب كلوتز G. Glotz بأن المنهج المقارن أتاح للعلوم المختلفة إمكانية تحقيق تقدم شبيه بالمعجزة، فلماذا لا يشمل هذا التقدم مجال التاريخ أيضا؟ بعد ذلك (في المؤتمر العلمي "بأوسلو Oslo" في عشرينيات القرن الماضي) تأسف بلوك M.Bloch على جل المؤرخين لأنهم لم ينتبهوا بعد لفائدة المقارنة في مجال التاريخ، ولأنهم بذلك يستهترون بمستقبل هذا العلم.

وضع التاريخ المقارن في عشرينيات القرن الماضي مصاقبا للتاريخ الوطني الذي نحا خلال الحرب الكونية منحى إثنيا عنصريا يكرس تفوق شعوب على أخرى. وعلى هذا قدم التاريخ المقارن نفسه على أنه نهاية للآلام المترتبة عن التاريخ الوطني، بما أنه يتجاهل الحدود الدولية، فالمؤرخ يعتبر مقارنا إذا كان يتبنى وجهة نظر عالمية.

في سنة ١٩٣٣ قدم شارل سينيوبوس (Ch. Seignobos, Essai d'une histoire comparée des peuples de l'Europe, Paris, 1933.) محاولته عن التاريخ المقارن بين الشعوب الأوربية، لكن الطابع الذي غلب عليها كان وصفيا، مما جعلها دون الطموح الذي ينشده التاريخ المقارن.

---

١ - لا نريد في هذا العمل تكرار تفاصيل - بخصوص تفسير الوقائع برموز السلطة - ذكرناها في مكان آخر. (غوردو، التمدين والسلطة، ١٩٩٨ الباب الثالث).

بعد ذلك تعالت موجة المنادين بضرورة إيجاد مكان تحت الشمس للتاريخ المقارن[2] (P.A. Brunt , H. Metteis, R. Coulborn, R. W.Kaupe. وغيرهم...) إلا أن أشد المنافحين عن هذا النوع من الكتابة التاريخية يظل ، وبامتياز ، مارك بلوك ، من خلال عمله "Rois thaumaturges" سنة ١٩٢٤م ، وكذلك من خلال رسالة كتبها في السنة نفسها لصديقه بير H.Berr حيث ذكر بأن ميوله كلها تجنح نحو التاريخ المقارن. ثم أكد ذلك عندما نشر نصين لمعالجة مفهوم هذا النوع من التاريخ (١٩٢٨ و ١٩٣٠) أعاد فيهما بصياغة متطورة ما كان دوركايم قد قرره منذ مدة طويلة ، حيث ذكر (بلوك) بأن ممارسة التاريخ المقارن تعني البحث من أجل التفسير عبر مقارنة (استخراج نقط الاتفاق ونقط الاختلاف) معطيات لمجموعات اجتماعية متباينة. للحديث عن التاريخ المقارن لا بد إذن من توافر شرطين أساسيين: أولا ، نوع من التماثل والمشابهة بين الظواهر الملاحظة. ثانيا: نوع من التباين والاختلاف بين المجتمعات التي أنتجتها.(Bloch, 1928, 17). هذا المنهج يمكن أن يطبق ، حسب بلوك دائما ، بطريقتين:

- المقارنة بين مجتمعات متباعدة في الزمان والمكان ، بحيث يتعذر تفسير التماثل بوحدة الأصل أو بالتأثير المتبادل.
- مقارنة ، عبر الدراسة المتوازية ، مجتمعات متجاورة متزامنة ، لتقصي ، ولو جزئيا ، الأصل المشترك. (Bloch, 18-19).

إن النتائج التي يمكن الحصول عليها عبر هذا المنهج لا يمكن أن تكون إلا ثرية. إذ فضلا عن الوظيفة الكشفية Heuristique التي تسمح باكتشاف ظواهر لم تكن لتخطر على البال ، لو تمت محاصرة الظاهرة المدروسة في وسط بعينه ، يقدم المنهج قابلية المساعدة على تأويل وتفسير[3] الظواهر التاريخية ، ومن ثم الحكم عليها ، بكيفية مؤسسة على وقائع من أزمنة أو أمكنة متباينة (أو منهما معا).

رغم ذلك فالواقع أن التاريخ المقارن ما زال يفتقر لمنهجية حقيقية تحدد بدقة أهدافه وصلابته العلمية[4]. وهو ما يدعو لمزيد من الاجتهاد للدفع "بالمقارنتية" Le comparatisme إلى أبعد الحدود. ونأمل أن يكون هذا العمل خطوة في هذا الاتجاه.

"الكلبونية" أو افتراس اللحوم الآدمية:

على سبيل التعريف

Cannibalisme مصدرها"Canis" أي الكلب باللاتينية. كنا نود اقتراح مفهوم "الكلبونية" (من الكلب) للتعبير عن السلوك الذي ننوي معالجته في هذه الدراسة ، إلا أننا ارتأينا استعمال مفهوم "الافتراس الآدمي" للدلالة على كل ما يرتبط بأكل اللحم البشري ، رغم أن ما يقابل هذا المفهوم في لغات أخرى (أوربية) يعتبر أكثر دقة وتخصصا. فما يهمنا ، هنا ، ليس البحث عن ترجمات بديلة ، ولا تدقيق نوعية الافتراس ، بقدر ما نبحث عن "رموز السلطة" التي أدت إليه. على أن ذلك لا يمنع من أن ننبه ، من باب العلم بالشيء ، إلى ما يلي:

Cannibalisme: أكل لحم بشري وفق طقس اجتماعي يوحد المجموعة الاجتماعية ، فهو طقس مدمج ضمن ثقافة المجتمع. (ظاهرة ثقافية)

Anthropophagie : سلوك شاذ عن الثقافة المؤطرة له ، مصدره غالبا انحراف في السلوك السوي ، وقد يرتبط بأعراض مرضية.

ومن هذين الجذرين تم اشتقاق العديد من الاصطلاحات ، منها:

Endocannibalisme (Endophagie) :
أكل لحم بشري من داخل المجموعة الاجتماعية.

Exocannibalisme (Exophagie) :
أكل لحم بشري من خارج المجموعة الاجتماعية.

Autophagie : أكل الإنسان بعضا منه.

Teknophagie: أكل الأطفال حديثي الولادة.

Foetophagie : أكل الأجنة.

Pygophagie : أكل الأرداف.

Pedophagie: أكل الأطفال والمراهقين.

Tanathophagie: أكل جثث الأموات.

Théophagie: طقس يتم خلاله أكل الإله.

Allélophagie:
يتعلق بمجموعة اجتماعية تفترس بعضها بعضا في نفس الآن.

Mini-endocannibalisme:
يتعلق في طقوس معينة ، أكل قطعة اللحم التي تقطع بعد الختان.

مفهوم افتراس اللحوم الآدمية

إذا كان مارك بلوك يقصد "بافتراس اللحوم الآدمية" مركزة البحث التاريخي حول الإنسان[5]
(M.Bloch, Apologie pour l'histoire ou metier de l'historien, Paris, 1949, 3édit. 1959,pp. 4-5)

فإن ما نعنيه نحن "بافتراس اللحوم الآدمية" هو الافتراس الفعلي/الحقيقي لهذه اللحوم. الافتراس الذي قال عنه فرويد ، ذات يوم ، (Freud, Avenir d'une illusion) بأنه (مع انتهاك المحارم والقتل): من الرغبات الغريزية التي تعمل التربية على كبتها ، لكنها تبقى قاسما مشتركا بين "الحضارة" و"الحالة البدائية الوحشية" ، حتى لو كان هذا القول يثير حفيظة الأنتربولوجي الشهير فريزر (Frazer, Totemism and exogamy,4vol, London, 1910) الذي كان يستهجن أن يكون هناك شبه في بعض الصفات بين المجتمعات الأوربية ومجتمعات آكلي البشر (التي درسها واعتبرها همجية بدائية) ، ذلك أن هذا التشبيه ، في رأيه ، "مقلق وخطير".

---

٢ - من أشهر الدراسات التي أنجزت باعتماد هذا المنهج:
K. A. Wittfogel, Oriental Despotism : A Comparative Study Of Total Power, New Haven, 1957.

٣ - استعمل بلوك فعل Expliquer وكنا نود الاستعاضة عنها بكلمة Herméneutique التي تترجم عادة للعربية بالتفسير والتأويل ، لكنها حادة الدلالة في اللغة الفرنسية.

٤ - لمزيد من الاطلاع على التاريخ المقارن (المنهج والمتابعة الكرونولوجية) يمكن الرجوع إلى:
Brève histoire de l'histoire comparée, dans G. Jucqois-Ch, Vielle (Ed), Le comparatisme dans les sciences de l'homme, Approches pluridisciplinaires, Bruxelles, 2000, p.301-327.

٥ - في مقابل لادوري الذي يدعو إلى إقصاء الإنسان عن هذه المركزة وتحجيمه في إطاره الحقيقي داخل التاريخ الطبيعي.
(Le Roy Ladurie, Le territoire de l'historien, Paris, 1977)

في ٤ نوفبر ١٤٩٢م كتب كريستوف كولومبس عن هنود الأنتيل بشيء من المبالغة والخيال، عندما سجل بأن بعضهم له عين واحدة وآخر بملامح الكلاب... وأنهم يذبحون الناس ويشربون دماءهم ويقطعون أعضاءهم التناسلية. بعد ذلك (٢٦ نونبر) سماهم "Caniba"، جنود الخان الأكبر Grand Khan الذين يثيرون الرعب في كل ناحية، وحددهم في هنود "الأرواك Arawaks" الذين أثاروا في مخيلته فكرة "Canis" أي الكلب باللاتينية. (وكان الرحالة الإيطالي ماركو بولو Marco Polo قد ذكر شيئا شبيها بهذا في رحلته، وذلك بالمنطقة الممتدة من التبت إلى أندونيسيا).

لم يكن بإمكان كولومبس أن يميز بين الصواب والخطأ من خلال ما سمعه في رحلته الأولى. لكن بعد سنتين من ذلك اكتشف في قرية - من كوادلوبي "Guadeloupéen" - هجرها سكانها دلائل على بقايا افتراس آدمي.

من هنا أصبحت الكلمة Cannibale (والأصل الإسباني Canibal) تعني "الرجل المتوحش"، وفي الإناسة (الأنتروبولوجيا) تعني أكل اللحم البشري ولكن لهدف آخر غير التغذية.

"جون دي ليري Jean de Lery" – مصلح ديني – لاجئ إلى جنيف ومنها إلى البرازيل (مبشرا)، واحد من أقدم من كتبوا عن أكل اللحم البشري. بعد عشرين سنة من إقامته في البرازيل أصدر سنة ١٥٧٨م كتابا شيقا عن الظاهرة لدى قبائل "تيبينامبا Tupinamba"، حيث وصف طقوسها في الافتراس من دون أن يدينها، وأثار بالمناسبة ما كان يجري في القارة العجوز (أوربا) أثناء الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، حيث كان يتم قتل وأكل اللحم البشري بهدف القضاء على الهرطقة.

جون دي ليري Jean de Lery هذا وكغيره من علماء الإناسة (Hans Staden و André Thevet) الذين تطرقوا لظاهرة "الافتراس الآدمي" أكدوا على أن L'Exocannibalisme (أكل آدمي من خارج المجموعة الإثنية)[٦] لا يسمح، تبعا للعادات، بأكل أي كان، في أي وقت كان، أو في أي مكان كان... فالأمر مضبوط بطقوس محددة سلفا، أي أنه مظهر ثقافي لا يدع أي جزئية تنفلت من ضوابط الطقوس. تماما مثل L'Endocannibalisme: (يتعلق الأمر بأكل الأموات من نفس المجموعة الاجتماعية)[٧] المرتبط عادة بالطقوس الجنائزية - المنفعلة بالغيب - داخل المجموعة الإثنية ذاتها، فهو أيضا مقيد بقواعد اجتماعية ثقافية محددة سلفا.

فالغيب عالم لا مرئي، خفي، مسكون بالأرواح، مركز جميع القوى ومصدر جميع الآلام. يجب اتقاء أية حالة وفاة، لأن تحرر روح مشردة، لا يعرف بالضبط نواياها، قد يؤدي إلى الأسوأ. لذا فالافتراس الآدمي أداة وقائية: لأنه للقضاء على الروح ينبغي أكل الجسد.

كتب بيير كلاستر بهذا الصدد (Pierre Clastres, 1982, Au sujet des indiens Guyakis): "إذا لم يتم استهلاك الروح، فإنها تبقى قريبا من الأحياء، مستعدة للتهجم عليهم، للتغلغل في أجسادهم وافتعال مشاكل تنتهي بهم إلى الموت... الموت يحرر الروح من الجسد، الذي كان يبقيها سجينة داخله، عاجزة عن أي إزعاج. لقطع الطريق أمام مشاريعها السيئة، والوقوف حاجزا أمام تيهانها المشؤوم، ينبغي أكل الجسد الذي غادرته... غلافها القديم... محو الجثة عن طريق أكلها، يجعل الروح تعترف بأنه لم يعد هناك من داع لوجودها، لأن وظيفتها انتهت بعالم الأحياء.".

لدى قبائل "كابنكوا Capanaguas" بأمريكا الجنوبية، أو لدى قبائل "تابويا Tapuias" داخل ولاية "باهيا Bahia" – بالبرازيل – أكل جثث الموتى من الأقارب تحمي الأموات من الضياع والتحلل البطيء المتعفن داخل التراب: "من الأفضل أن يسكنوا جسد أحد الأصدقاء بدل دفنهم في الأرض الباردة" هذا هو شعارهم.

على الضفة الأخرى للمحيط الهادي نجد مثيلا لهذه الطقوس عند بعض القبائل الآسيوية، ففي سنة ١٨٤٠م حاول أحد المبشرين اليسوعيين إبداء استهجانه - من الافتراس الآدمي – لأحد زعماء "الباتاك Batak" بجزيرة سومطرة، معبرا له عن مدى التقزز الذي يثيره مثل هذا السلوك. فسأل الزعيم "البدائي" رجل الكنيسة: "ماذا تفعلون بآبائكم بعد موتهم؟" أجاب المبشر: "ندفنهم في التراب حيث يتحلل الجسد من تلقاء نفسه"، فرد عليه زعيم الباتاك: "ماذا لدينا أغلى من أجسادنا؟ لا شيء. إن حب آبائنا هو الذي يدفعنا لتقديم أجسادنا قبورا لهم حتى يحيوا بداخلنا. هكذا لا يتعفن رفاتهم في التراب ولا يصبح فريسة للديدان".

"الافتراس الآدمي" إذن سلوك يخترق العديد من الثقافات العالمية، متخذا صورا ومظاهر متباينة، ما بين الفعلي والرمزي، وهكذا ففيما يأكل عبدة الإلهة الهندية "كالي Kali" المسنين والمرضى اعتقادا منهم بأن ذلك يرضي آلهتهم، تقوم المسيحية على رمزية سلوك "الافتراس الآدمي" - الذي ما يزال متبعا لحد الآن - ذلك أن سر القربان المقدس، في الكنيسة الكاثوليكية، يكمن في الاعتقاد في أكل لحم المسيح وشرب دمه (الخبز والخمر). "قال المسيح: في الحقيقة، إذا لم تأكلوا لحم ابن الإنسان ولم تشربوا دمه، فليست فيكم أية حياة. فالذي يأكل لحمي ويشرب دمي له الحياة الخالدة، وأنا أضمن له الخلاص يوم الدينونة." (Jean 6. 53-54) وقال أيضا: "خذوا هذا - الخبز - إنه جسدي" (1Corinthiens11. 23-24)، ثم رفع كأسه بعد أن ملأه، وقال: "هذا جسدي الذي أعطي لكم." (Luc. 22-19).

في "الإنجيل" أيضا نقرأ بأن المسيح قدم لحوارييه قطع الخبز قائلا: هيا كلوا، هذا جسدي. ثم قدم الخمر قائلا: اشربوه جميعا، إنه دمي. (St.Luc,Chap.22 «17/21» et St Mathieu, Chap. 26« 26/29»)

أن تأكل لحم الإله معناه أن تتوحد معه، تتألّه. الفكر المسيحي إذن قائم حول فكرة مركزية أساسية هي أكل "الإله" الذي هو بشر أيضا، أي "أكل اللحم البشري".

أما في "التوراة" فنقرأ بأن موسى هدد بني إسرائيل بأن الله سيسلط عليهم شعبا يعذبهم إلى درجة أنهم سيأكلون أبناءهم وبناتهم. كما نقرأ في كتاب "الملوك" بأنه أثناء حصار أورشليم والسامرة، دفع الجوع النساء إلى طبخ أطفالهن وتقديمهم وجبات غذائية.

لدى شعوب جزر بانكس Banks (كلود ليفي ستراوس، الفكر البري، تعريب نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٧، ص. ١٠٠) يسود الاعتقاد بأنه

٦ - كأكل العدو مثلا من أجل اكتساب فضائله أو الانتقام منه... ومن أشهر من مارسه هنود "تيبينامبا Tupinamba" بالبرازيل. انظر بهذا الصدد أعمال ألفرد ميترو Alfred Métrau.

٧ - وذلك، حسب مارسيل موس Marcel Mauss (١٨٩٦م)، لأجل الحفاظ عموما "على جزء من روح العائلة التي تجنح نحو الهروب" وأشهر من يمثله قبائل Guayaki في البراغواي.

ينبغي على الطفل ألا يأكل "قرينته، نبتة كانت أم حيوانا، لأنه يلاقي الموت المحتوم. ولأن هذه القرينة هي ثمرة لا تؤكل، عليه ألا يمس الشجرة التي تحملها. ذلك أنه من يأكل قرينته كمن يأكل لحمه". أكل القرينة، هنا، وحسب المنظومة الطوطمية، هو من قبيل "أكل الذات" (Autophages) الذي وسعه الاجتماعي، الإثنولوجي، وعالم النفس كوستاس ناسيكاس Kostas Nassikas، ليشمل الإضراب عن الطعام أيضا: المضربون عن الطعام هم من المفترسين الآدميين (Autophages) إذ "كيف يمكنهم أن يستمروا في الحياة رغم إضرابهم عن الأكل؟" الجواب الضروري لذلك هو أنهم يأكلون ذواتهم: "بطريقة غير مرئية، الصائم يأكل ذاته... يتغذى على لحمه الخاص".

في الحالتين (جزر بانكس والإضراب عن الطعام) "أكل الذات" مضمر، لكنه قد ينكشف في حالات أخرى مثل التي وقعت سنة ١٨٩١م، مثلا، عندما عرضت على البروفسور كارنيي Garnier "حالة خاصة" لدراستها: أوجين Eugène، أجير بسيط، عثرت عليه شرطة الحراسة على كرسي عمومي وفي يده مقص يقطع به أجزاء من ذراعه اليسرى ويبتلعها بدمها. مشاهدة فتاة جميلة بيضاء البشرة كانت تثير شبقه لدرجة أنه يتمنى أكلها، لكنه لم يكن ليفعل ذلك أبدا، فعوضا عن أكلها، كان يقطع الأجزاء الناعمة البيضاء من ذراعه ويأكلها.

نفهم من كل هذا، يا سيدي، أن "الافتراس الآدمي" سلوك موضوعاني Objectal. ما يحكم عليه "بالشذوذ" أو "العادية" هو الثقافة الحاضنة لا غير، قد يتخذ أشكالا نمطية عديدة، لكن في دراستنا هذه سنعرض لتحليل الافتراس الآدمي "الفعلي"، ولن تكون لنا أية علاقة بأشكاله "الرمزية" الأخرى. أما "رموز السلطة" التي تدفع إليه فعديدة ومتباينة، وسنحاول الكشف عن بعضها من خلال هذا الموضوع.

الفصل الثاني: الافتراس الآدمي بداعي اللذة

- حول اللذة.
- هيدون أو لغز اللذة.
- هل تقبل أن تكون عشائي؟ (شهادات معاصرة)
- هيدوني ة الافتراس: وصل بالماضي.

حول اللذة

"مستهتر، متهكم، عنيف،
هكذا تريد اللذة* لواحدنا أن يكون.
إنها امرأة، وهي لن تحب أبدا إلا مقاتلا."
نيتشه: هكذا تكلم زرادشت.

*في الأصل: "الحكمة".

"هيدون" أولغز اللذة

الرغبة عارض من عوارض النفس التي ترنو إلى تجاوز حالة من العوز الداخلي لأجل الوصول إلى حالة مغايرة من الإشباع، مع ما يصاحب ذلك من انتشاء ومتعة. فهي إذن حالة طبيعية مرافقة للإنسان في ممارساته اليومية. جهاز مركب من تفاصيل وجزئيات تزدهر يوميا وتنمو فينا نزوات عابرة أو ملحة. وككل جهاز عابث لعوب، فإنه قد يتحول من الطبيعة إلى الشذوذ بما أنه يوقظ داخلنا حالات من التناقض المرير التي علينا أن نحملها كما نحمل السرطانات الحميدة والخبيثة. هاهنا يختفي لقيومنا Lyceum السري الغامض، الذي يزاوج بين دواخلنا: أحاسيسنا، مشاعرنا، طوياتنا... وخارجنا: قيمنا، عاداتنا، ثقافاتنا... ولأن الأمر ليس مقصورا على مجرد مشاعر يمكن أن تتحقق بأية طريقة كانت، بل يتجاوزها للاصطدام بالثقافة، فمسألة إشباع النهم الداخلي إذن قد تفجر حالات ترفضها "القيم" (نناقشها كحالة تاريخية واقعة دون أن نلتفت إلى زيفها أو صفائها)، حالات من السفالة والنذالة والانحطاط.

واضح إذن عبر هذا التقديم أن الرغبة نزعة داخلية فطرية فينا تؤطرها وتحكمها ضوابط أو قواعد خارجة عنا. هناك تعارض معقول، أو لا معقول – ما شأني بذلك – بين شعور بري مفرط في بدائيته، يريد أن يحلق كالبجع دون قيود ويستمتع في بحيرته كيفما شاء وأنّى شاء، ورقيب اجتماعي ضابط مهمته ملاحظة، وملاحقة، تجاوزات الطائر المحلق السابح ووضع الحواجز من أجل تدجينه وترويضه. وهذا التعارض بالضبط هو ما يثير الشك والريبة بل والرهبة أيضا مما يجيش فينا من رغبات تراودنا باستمرار لتحقيقها. تسائلنا مساءلة حثيثة، وما همها الحواجز المدجنة، أما نحن فعلينا أن نلتفت كل مرة إلى هذه الحواجز قبل أن نجيب عبر "لا" آنتا أو "نعم" آنتا، لكننا، والحق يقال، نجيب في مناسبات عدة بنعم حيث يفترض أن نقول لا. نستسلم للرغبة الجامحة – ولو في سرية تامة – نستسلم ونستكين، لا نتوانى عن وضع رؤوسنا في حجرها وننام، لأن الغواية كانت أعتى من الحواجز المحيطة، فتنهار قبل أن تنقلب ضدنا وتطبق علينا عبر عوارض الحزن والكآبة، أقصد عبر الضمير المتفاني في رفع الحواجز وتقويتها أكثر كل مرة تنهار فيها.

لهذا بالضبط نعتبر الرغبة من أشد العوارض إزعاجا. تنمو غرائزنا وتستفحل يوما بعد يوم، أو بالأحرى كل يوم رغبات جديدة مضللة تتقمص أشكالا مختلفة، متباينة، بل ومتناقضة فينا ومتناقضة من شخص لآخر، لا يسلم منها أي كان، حتى الفلاسفة والأنبياء المفرطون في المثل الزهدية لهم رغباتهم الماسة. كل منا مسكون بأفق ممتد من الغرائز والنزوات، ممتد إلى درجة قد تصيب بالدوار، وتجعلنا نشك ونرتاب في قدرة الضوابط القيمية، أقصد الحواجز، على ضبطنا خاصة وأننا نقوضها باستمرار، وعلى الضمير أن يعيد ترميمها باستمرار أيضا إذا شاء أن يبقى يقظا زاخرا بالحياة، في الحالة التي نمارس فيها اللذة بأسلوب مراء مخاتل مضلل، حين نمارسها في الآنات التي نعيشها دونما استحضار "لحرمة" المستقبل الطارق، أي حين نخوض في رحم اللذة عبر الذنب. طيب، وما الذنب في ذلك؟ الذنب أننا اقترفنا الذنب.

ترنو الرغبات إلى الإشباع، وترنو القيم إلى التطويق، وبقدر ما تحاول الأولى الانفلات والتحرر للعودة إلى الحالة الوحشية المنطلقة،

تطمح الثانية إلى التطويق والتكبيل لنقلها إلى الحالة المدجنة الوديعة. هي لعبة مشاحنة ومشاكسة وتحد إذن، فيها من الجسارة والعناد ما يجشم الفرد والمجتمع عبء ثقيلا كيما يتوصلا إلى توازن نفساني/اجتماعي عصي المنال، لكنه ضروري لتحقيق تعايش – ملغوم في النهاية – حتى لو اقتضى الأمر سحق بعضهما بعضا.

الرغبة المقرونة باللذة، والمتماهية معها، هي المتألق فينا، في صقيعنا الخاوي، في حياتنا الجليدية المتعبة الباردة. علينا أن نكابد طويلا من أجل استراق لحظات منها، لأن من سمات هذا المتألق، المتباهي بتألقه، أنه كلما أوغلت صحارانا الجليدية في خوائها إلا وجشمها مزيدا من المكابدة لملء فراغ صغير فيها، كلما تحققت اللذة عبر السهل إلا واشرأبت النفس إلى الصعب، فالأصعب... إلى ما لا قبل لها به. فالمتعة التي تتحقق بامتياز هي التي تجعل النفس مفتونة بها حتى الثمالة، حتى لو كانت بعيدة المنال، لتخرق الحواجز غير عابئة بها... ربما إلى حين؟

من سمات هذا المتألق المتباهي أيضا – إن كنت لا تدري – أن آناته قصيرة، قصيرة جدا، فهو كالشهب العابرة في ليالينا الشتوية الطويلة، وعلى أعيننا، إن هي أرادت الاستمتاع بهذا المبهج المنير، أن تبقى محملقة طويلا في ديجورها الحالك لاقتناص واحد منها. ولأجل أن تطيل متعتها به، عليها أن ترافق فاتنها المنير إلى أن يتلاشى ويختفي خلف الأفق المعتم السادي.

هاتان الصفتان المميزتان، أشد التمييز، للذة: هي "الضالة" التي ينبغي العثور عليها، وهي "القصيرة" التي ينبغي إطالتها، تنضاف إليهما صفة مؤطرة أثرناها سلفا هي تقاطعها مع الثقافة، مع الأوامر الاجتماعية: فلتبحث عن ضالتك بأي صورة شئت، لتطفئ أوارك المتأجج فيك طالما استطعت، لكن لا تنس أيها اللاهث "الغافل" الحواجز التي رسمتها لك الثقافة، لأنك إن طلبتها عبر نفق الإثم ستجد وحشين ضاريين في انتظارك عند طرفي النفق، أعدا بالضبط لمثل هذه الحالات الآثمة، وليكن في علمك أيها الآثم اللاهي أنهما من أكثر الأوابد قسوة وفظاظة وشغفا بالتعذيب، بل إن سداهما ولحمتهما جبلتا منه...

- لعلك خمنت الآن ما أعنيه؟
- "الضمير" و"العقاب"؟
- ذاك قطعا ما أعنيه.

الأول – الضمير – وحشك المتحفز داخلك، المستعد لنهشك وتمزيقك من الداخل عبر عذابات تحيلك عصفا مأكولا، إن مارست لذتك "الحرام" في سرية. والثاني – العقاب – وحشك الخارجي المتوثب المستعد لابتلاعك وهصرك دونما رحمة إن افتضحت الأعين إثمك الممنوع.

اللذة لغز الألغاز وسر الأسرار المبهم المنغلق على العقل، والجلي المنفتح على الحواس، الغريزة التي تجهد نفسها لتحقيرنا والحط منا وتذكيرنا، كل مرة، بضعفنا. في ضعفنا قوتها، وفي انصياعنا جاذبيتها. عليها أن تشحذ لهفتنا وتزين كل ما هو شاذ وغريب حتى لو كان بشعا كريها ما دامت تمسك عنان عواطفنا وتسوسها إليه دون احتراس ودونما مراعاة لانحطاطه أو رفعته، قدسيته أو دنسه، فهذا شأن الآخرين، شأن "الضمير" و"العقاب". هي الوسواس الجامح الذي لا يستنكف عن ترديد لازمته العابثة، وهما الديدبان الكابح الذي لا ينفك يذكر بأحكامه المرعبة، والإنسان البائس الشقي ساحة هذه الملحمة الطاحنة.

وحده "المباح" الخالص النقي، الشفاف، المصقول... يتيح له هامشا يضيق ويتسع، هامشا محفوفا بالحذر يرتع ويتلهى فيه ما شاء له أن يتلهى، شريطة أن يحترس من كل ردة تشده إلى "النجس" المحظور، أي أن يعرف كيف يكتم نشاطه المتدفق الأهوج، ويكبت عواطفه المتفجرة المحتالة حتى لا يقع في فخ النهم المنصوب. هذا "المباح" وحده المسموح به، كمقدار الدواء، وكل تمرد جشع مشؤوم، يهوي به أسفل سافلين، حيث الكفر واللعنة والجحيم.

ليست الرغبة دائما انطلاقا ومرحا ونشاطا جسديا مفعما بالحيوية، إذ بئس الرغبة هذه عند آخرين يجدون متعتهم في كل ما يغذيه الكسل والعزلة والارتخاء والنزوع إلى خمول "الذيذ"، ليس ساذجا مبتذلا دائما كما يتخيلن البعض، بل فيه من الإبداع والأصالة والسمو الفلسفي ما يعجز الغواية المتجسدة المقدسة عن كل مضارعة، فتنكسر أمامه مفلولة منكسة، أقصد خمول "ديوجين" الحكيم[8] المستمتع تحت أشعة شمسه الدافئة في بهاء وسمو. هذا الذي تعرف على ذاته فلم تزده المعرفة إلا بهجة وتمردا وظفرا، يحقق متعته بنقيض ما يمتعنا، بنظرة متعالية مترفعة إلى غنج "الإباحية" التي تثير كل خلية فينا: فهل من "عراف" مراوغ يدلني على طريق واحد، وحيد، للذة؟

تهوى اللذة، وهذه هوايتها المفضلة الوقحة، شق ألف طريق وطريق: مسالك معوجة، دهاليز مقفرة، سبل خفية... تفتح كل حين في أدغال النفس البشرية، تزعم كلها أنها تهدي إلى الغبطة، حبلى "بالسعادة". كل منا يرى سعادته في مسلك، سبيل، أو دهليز... مختلف عن الآخرين. يسلك البعض طريق التعفف، والحمية، والتأمل، والتطلع "للحلول" أو "النرفانا"... بينما يسلك آخرون طريق الدعارة والإدمان وافتراس اللحوم (البشرية؟)... للوصول إلى هستيريا تفجر النشوة... غرائز مكارة، واعية/لا واعية، تسكننا، تعشش فينا، تستهوينا وتأسرنا، لكن هل علينا أن نحمل كل هذه الغرائز على محمل الجد؟

لا تتعجل بالجواب، لكن قبل أن تجيب التفت إلى الأفق الممتد خلفك، أقصد التاريخ المديد بمد البصر، هذه الآلاف المكومة من الأعوام، كل لحظة فيها تؤكد لك بالضبط ما تعرفه بالعيان، أي هذا الذي يجري أمام ناظريك الآن. التفت إلى التاريخ وستجد فيه ما تشاء، وما لا تشاء، من الغرائز المسطورة فيه على قدر أعداد البشر الذين شيدوا هيكله وما زالوا يشيدوه.

هل تقبل أن تكون عشائي؟

(شهادات معاصرة)

في ٣ دجنبر ٢٠٠٣م أعلنت عدة قنوات فضائية - من بينها قناة "العربية" - خبر المهندس الألماني الذي نشر، قبل سنة من ذلك،

---

٨ - ديوجين الكلبي (٤٠٤-٣٢٣ق.م) مؤسس المدرسة الكلبية (القائمة على احتقار العادات والثقافة ونبذ الثروة والجاه وكل المتع الحسية...). تجري الأسطورة أنه عاش داخل برميل. يحكى أن الإسكندر وقف أمامه يوما وقال: "أنا الإسكندر الأكبر"، فرد عليه الحكيم: "وأنا ديوجين الكلبي". فقال الإسكندر: "تمنّ عليّ ما تشاء"، فرد الحكيم: "تنحّ من أمامي، فأنت تحجب عني أشعة الشمس".

صفحة على الإنترنيت يطلب فيها إن كان هناك شخص يعرض جسده للأكل. وفعلا لبّى أحدهم الدعوة وزار المهندس في بيته، حيث وجده منهمكا في إعداد وجبة بشرية لمدعو آخر. التهم المهندس، وضيفه، الوجبة البشرية قبل أن يلتفت للضيف ويبدأ في افتراس جديد.

كاد أن يمر كل شيء "بسلام" لولا أن "ريمة عادت لعادتها القديمة": الإعلان على صفحات الإنترنيت. وفي هذه المرة تقدم خمسة أشخاص كلهم مستعدون لعرض أجسادهم للافتراس، إلا أن الشرطة التي انتبهت للعملية تمكنت من إيقافها قبل التنفيذ، كما تمكنت من اكتشاف آثار افتراس آدمي في بيت "المهندس".

المشكلة التي اتضحت أثناء المحاكمة تمثلت في أن القانون الألماني لا يتوفر على نصوص تجرّم "الافتراس الآدمي"، فاضطر الادعاء العام لتوجيه تهمة "القتل" للمفترس، لكن محامي الدفاع أصر على أن موكله لم يقتل ضحيته (أو ضحاياه) مستدلا بظروف القضية وحيثياتها التي تؤكد بأنهم قدموا أنفسهم، وعن طيب خاطر، لموكله... وبعد جدل حاد حكمت المحكمة على المفترس الألماني ب١٥ سنة سجنا، يوم ٢٩ دجنبر ٢٠٠٣.

هذا، حسب علمنا وإلى حدود تحرير هذه الدراسة، آخر ما جد في موضوع "الافتراس الآدمي"، لكنه لن يكون الأخير على ما نظن، كما أنه ليس الأول على كل حال. فهذه الحالة لا تشكل استثناء في تاريخ القضاء، لأن أرشيفات المحاكم تغص بعشرات القضايا المماثلة، وفيما يلي نماذج عنها:

- جزار "ميلووكي Milwaukee": جيفري دامر Jeffrey Dahmer، ٣١ سنة، حكم عليه ب ١٠٧٠ سنة سجنا عن ١٥ جريمة قتل ارتكبها بين ١٩٧٨م و١٩٩١م، في ميلووكي، وقتل في سجن بورتاج Portage من طرف سجين آخر، سنة ١٩٩٤م.

اتهمته السلطات الألمانية بخمس جرائم قتل أخرى ارتكبها خلال الثمانينات عندما كان يعمل مساعدا طبيا بإحدى القواعد الأمريكية بألمانيا.

كان يفضل قتل المراهقين خصوصا الزنوج والآسيويين. يخدرهم، يمارس عليهم الجنس، ثم يخنقهم. بعد ذلك يقوم بقطع أجزاء منهم وأكلها. عندما اقتحمت عليه الشرطة مخبأه، عثرت على العديد من العظام والجماجم البشرية وقطع من اللحم البشري معلب في الثلاجة، وأجزاء أخرى قيد الطهي. (عثرت الشرطة أيضا على أياد مقطوعة وأرجل مجتمعة في دلو واحد)، أما الأعضاء التناسلية (وهي المفضلة لديه) فعثر عليها مجموعة قرب السرير حيث كان يخلطها بالنبيذ الأبيض، وقد جهز أحدها مع السلطة... مجموع ما عثر عليه: أحد عشر جثة مقطعة.

اعترف المجرم أثناء المحاكمة بأنه كانت تدفعه لذة الحفاظ على عشاقه بالقرب منه، وقال: "قتلتهم لأني وجدتهم جميلين، وأكلتهم لأني أردت الحفاظ على أجزاء منهم حية بداخلي".

- المفترس الياباني إيسيي ساكاوا Issei Sagawa، ٣٢ سنة، طالب آداب ياباني بباريز.

قتل وأكل، يوم ١١ يونيو ١٩٨١م، طالبة هولندية (رينيه هارتفلت René Hartevelt ٢٥ سنة)، تعرف عليها في الكلية وأحبها بجنون، كانا يتبادلان الزيارات، لكنها كانت ترفض ممارسة الجنس معه، لأنها لم تبادله الحب نفسه، بل مجرد بعض الملاطفة والمجاملة. في اليوم المشؤوم زارته في مسكنه حيث قتلها ببندقيته، وبعد نصف ساعة بدأ في التهامها. اعترف قائلا: "عندما بدأت بفصل العظام عن اللحم أكلت الشفتين، واللسان، ثم أرنبة الأنف." أكل هذه الأجزاء وهو يحمل منشارا كهربائيا ويقطع الجثة حسب ما سيهيء من وجبات، وكان بين الفينة والأخرى يتوقف عن التقطيع ويلتقط بعض الصور. بعد اعتقاله اعترف في تعبير مثير ودقيق بافتراسه الآدمي، قال: "كنت سعيدا، كان معي كل الحق، لأن ذلك كان لذيذا... منذ مدة طويلة كان ينتابني شعور غريب: الرغبة في أكل إحدى الفتيات... أكل هذه الفتاة كان تعبيرا عن ولهي الشديد بها. أردت أن أستشعر بداخلي حضور الإنسان الذي أحببته."

- جزار روستوف Rostov: أندري تشيكاتيلو Andrei Tchikatilo، ألقي القبض عليه سنة ١٩٩٠م عن عمر يناهز ٥٦ سنة.

تم تصنيفه من أخطر مجرمي القرن ٢٠م، اتهم بالقتل والاغتصاب والافتراس الآدمي، ما مجموعه ٥٥ جريمة قتل، لكن نظرا لغياب الأدلة تم الاحتفاظ ب ٥٢ فقط: ٢١ ولدا، ١٤ بنتا، أعمارهم ما بين ٨ و١٦ سنة، و١٧ امرأة بالغة. تطلب الأمر من الشرطة الروسية ١٢ سنة من البحث والتحقيق المضني. الرجل كان يقتل ويفترس كل سنة بين ٤ و٥ أشخاص. اشترك في التحقيق ٥٠ خبيرا وبضع مئات من رجال الشرطة وتم استجواب أكثر من ١٠٠ ألف شخص و٥٠٠ ألف مختل عقليا مع مئات التحاليل الدموية والسوائل المنوية... دون جدوى.

- الرجل – أندري تشيكاتيلو – كان يحيا حياة مزدوجة، لا تثير أدنى شبهة: من جهة الزوج المخلص، والأب الحنون، والجد الطيب، الدكتور في الفلسفة وأستاذ اللغة والأدب الروسي، (تخلى عن ذلك سنة ١٩٨٠م والتحق بالخدمات التقنية للسكك الحديدية). ومن جهة ثانية، القاتل، آكل البشر، الذي يريق الدماء عند كل فرصة سانحة، في كل مدينة يزورها.

له طقوس معينة في التعامل مع ضحاياه: يطعنهم بالسكين عدة طعنات ثم يغتصبهم، وبعد ذلك يقتلهم، ثم يفصل الأطراف عن الأجساد، ويفرغ الأحشاء قبل أن يقطع اللحم. الأجزاء المفضلة لديه هي العينان واللسان الذي كان يبتلعه في الحال. من عادته أيضا أن يترك جثث ضحاياه في الغابة، لكن قبل ذلك كان يقطع الأجزاء التي ينوي أكلها، بعضها كان يأكله نيئا، بينما كان يفضل البعض الآخر مطهيا بالبهارات، هذا كان شأن الأعضاء التناسلية مثلا.

كان هادئا طيلة أيام المحاكمة، بل كثيرا ما كان يطالع كتابا – بلا مبالاة – في الوقت الذي كان فيه الادعاء العام يعرض الجرائم، ويتحدث عن الدماء والاغتصاب والافتراس... في إحدى المرات تناول الكلمة، انتظر حتى خيم الصمت على القاعة، وقال: "شاهدت الفتاة وسط الجموع، قدمت إليها نفسي فقبلت أن نتجول على ضفة النهر، ثم وجدنا أنفسنا لوحدنا. أخذت السكين ومزقتها، ثم شققت بطنها. قطعت اللسان – مع الأسنان – وابتلعته..." قال هذا في هدوء، قبل أن يواصل بعد برهة صمت: "على العموم، في مثل هذه الأوقات فقط، كنت أصل إلى كامل النشوة الجنسية". أثبتت المحكمة جرائمه، وقتل رميا بالرصاص سنة ١٩٩٤م.

- هاملتون ألبرت فيش Hamilton Albert Fish، تم إيقافه سنة ١٩٣٤م. أب لأسرة من ستة أبناء، وجد لخمسة أحفاد، عمره ٦٤

سنة. اعتبره الأخصائيون حالة غريبة، شاذة، في تاريخ الإجرام، لأنه طبق على ضحاياه كل ما يمكن أن يخطر، أو لا يخطر، بالبال. لا يعرف بالضبط عدد ضحاياه، هو نفسه اعترف للمحققين، بمائة جريمة، رغم أنه لم يحاكم إلا على ١٦ أثبتها التحقيق. طبيبه النفساني الدكتور Frederick Westham الذي كانت له معه اعترافات حميمة، يقول بأن الجرائم تتعدى ٤٠٠ جريمة، مما يجعل هذا المجرم، آكل لحوم الأطفال، في مصاف أخطر المجرمين عبر كل الأزمنة.

كانت له طريقة واحدة يكررها عند كل جريمة: يغري الأطفال بقطع الحلوى والنقود، ثم يقتادهم إلى دهاليز المنازل المهجورة، أو إلى بيته إن سمحت الظروف، ثم يشلهم عن الحركة ويقوم باغتصابهم قبل الإجهاز عليهم. في أحيان كثيرة كان يعذبهم عدة أيام قبل قتلهم. اعترف قائلا: "كنت أنتشي عندما أسمعهم يصرخون من الألم".

عن إحدى الحالات - حالة الطفل Billy Gaffney - يقول المجرم: "ضربته حتى سال الدم من رجليه، جذعت أنفه وأذنيه، وقطعت الفم عبر دائرة كبيرة من الأذن إلى الأذن، اقتلعت العيون من محاجرها... غرزت الخنجر في البطن ثم وضعت فمي في الشق الذي أحدثته وشرعت في امتصاص الدم وهو ما زال دافئا. بعد ذلك قطعت الأطراف، ثم فصلت الجسد والأرجل عن المؤخرة، قطعت الرأس والأطراف وعدت إلى بيتي وأنا أحمل اللحم معي. الأعضاء المفضلة لدي هي: العضو التناسلي، والكلى، وجزء من المؤخرة صالح للشواء في الفرن قبل الأكل. حضرت يخنة Ragout بالأذنين والأنف وقطع من الوجه والبطن، وضعت البصل والجزر واللفت والمتبلات. كان شهيا...".

كان يحمل معه دائما حقيبة يسميها "أدوات الجحيم": منشار، وساطور، وسكين جزار لفصل اللحم عن العظام. وكان يقول بأنه يحب أكل اللحم البشري عندما يكون القمر بدرا. وقد حكم عليه (ب USA بعد أن أفقد الناس الثقة بعلم النفس عدة شهور) بالموت بالصدمة الكهربائية في ١٦ فبراير ١٩٣٦م.

- "ملك الشعير" هكذا لقبته الصحافة، Nicolai Djoumageliev أكثر "المفترسين" شراسة. ضحاياه أكثر من خمسين، من بينهم أخته الصغرى، استخدمهم لإعداد وجبات تقليدية كازاخستانية.

في موسكو (إحدى ليالي يناير ١٩٨١م) عاد عاملان ثملان، من كثرة ما تناولاه من الفودكا، إلى مقر سكناهما. فدخلا إلى ما ظنا أنه غرفتهما حيث وجدا قدرا كبيرة تغلي فوق نار المدفأة. اقترب أحد السكارى من القدر لينظر بداعي الفضول ما بداخلها، فلم يلبث أن صرخ وسقط مغميا عليه. اقترب زميله بدوره ثم أطل داخل القدر فوقف جامدا كأن ليس به قطرة دم واحدة: فداخل القدر كان هناك رأس امرأة تحيط به بعض الأشلاء البشرية تسبح في حساء دام... "نيكولاي" كان ينتظر أصدقاءه للعشاء.

حضرت الشرطة بعد عشر دقائق، فتشت الغرفة لتجد، دون عناء، بقايا بشرية، الكثير من العظام، داخل علب كرتونية، بعضها ما زال به بعض اللحم.

الرأس داخل القدر كان لامرأة لقيها في الحديقة، شربا الشاي وصعدت معه لغرفته لممارسة الجنس، لكن لم يكن له رغبة في ذلك، قتلها وبدأ في طبخها لأن اللحم البشري، يقول نيكولاي، ينتن بسرعة. "عندما أذبح امرأة، أبدأ أولا بشرب الدم، لأنني سمعتهم يقولون بأن ذلك يطهر النفس. بعد ذلك أقطع النهدين وأقليهما، فذلك يعطيهما مذاق الخنزير البري. ثم أطبخ القطع الأخرى بالتدريج... أنا لا آكل أي امرأة، فقط العاهرات... لكن كلهن عاهرات... ويجب تخليص العالم منهن...".

"ملك الشعير"، "جزار روستوف"، "المفترس الياباني"، "جزار ميلووكي"... هذا مجرد غيض من فيض (راجع ملاحق هذا الفصل) مما تختزنه أرشيفات المحاكم في هذا الإطار، تتكشف عبرها نماذج لمفترسين آدميين لا يجدون متعتهم القصوى، لذتهم (أو هيدونهم)، إلا بغرز أنيابهم في اللحم البشري. لا شيء غيره يشعرهم بالانتشاء، وأحيانا أجزاء معينة فيه هي التي تحقق لذتهم. هاهنا "هيدونية" بأكثر مما صاغها أبيقور Epicurus وطورها لوكريتيوس Lucretius، وعبر عنها "التشاي" الكونفوشي: الجوهر الغارق في الرذيلة والمستسلم لكل إغراء حسي. هاهنا "اللذة"، اللذة فقط ولا شيء غيرها.

هيدونية الافتراس: وصل بالماضي

من يتتبع ابن بطوطة في رحلته، يتوقف عند محطات، منزوية، من "الافتراس الآدمي". أولاها، فيما رصدنا، في وصف الغلاء الواقع بأرض الهند، حيث يقول (ص.٥٠١): "حدثني بعض طلبة خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمى أكرورة... فوجدوها خالية، فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا فيه، فوجدوا في بعض بيوته رجلا قد أضرم نارا، وبيده رجل آدمي وهو يشويها في النار ويأكل منها، والعياذ بالله."

بعد ذلك يحكي لنا (ص.٥٤٢-٥٤٣) عن السحرة الجوكية الذين يأكلون الآدميين ويشربون دماءهم ببلاد الهند، وكذا الساحرة "الكفتار" التي أحضروها له وهو في منصب القضاء "وقالوا: إنها كفتار، وقد أكلت قلب صبي كان إلى جانبها، وأتوا بالصبي ميتا"(ص.٥٤٤).

يذكر ابن بطوطة أيضا قصة مانسا موسى مع قاض له من البيضان، يكنى أبا العباس، غضب عليه مانسا موسى "ونفاه على بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم، فأقام عندهم أربع سنين، ثم رده إلى بلده، وإنما لم يأكله الكفار لبياضه لأنهم يقولون إن أكل البيض مضرّ لأنه لم ينضج، والأسود هو النضج بزعمهم."(ص.٦٩٣): "أكلة بني آدم" هؤلاء هم الذين سيفصل المستكشف البرتغالي "باتشيكو" في وصف وحشيتهم لاحقا (في رحلته ١٥٠٦/١٥٠٨م).

(Duarte Pacheco Pereira, 1508, Esmeraldo de situ orbis, Edit. Lisbone, 1892, Livre II, Chap. 7.)/Trad. Fr. R. Mauny, Bissau, 1956. .

كما ذكرهم أبو الفدا من قبل (ق.١٣م) عندما وصف بحيرة كورة (بحيرة تشاد حاليا) التي كان يقطن حولها قبائل البيدي Bidys المشهورة بافتراس اللحوم الآدمية (جغرافية أبي الفدا، ج.٢، القسم الأول). ويشبههم سكان ساحل الأنياب (ساحل العاج)، الذين وصفهم "لوايي"، خلال القرن ١٨م، وذكر بأنهم "أكثر قبائل الزنوج وحشية... إنهم يقتنصون كل من يمر بأرضهم من البيضان ويفترسوه، كما لا ينجو منهم جيرانهم السود أيضا..." (G.Loyer, Relation du voyage au royaume d'Issyny, Paris, 1714, p. 97-99) رواية "لوايي" صدى لما اختصره ابن عبد ربه الحفيد عندما ذكر في وصف المنطقة: "ومن سار من مدينة كوكو - ببلاد السودان - على شاطئ البحر غربا انتهى إلى مملكة يقال لها الدمدم، يأكلون من وقع إليهم من البيضان." (الاستبصار، ص.٢٢٥)

لا ينفرد ابن بطوطة إذن برواياته عن "الافتراس الآدمي"، لكن شهادته، مع ذلك، تبقى متميزة بالنظر إلى التفاصيل الغزيرة التي قدمها عن الظاهرة، وخصوصا عن الطقوس المرافقة لها، والتي تشبه إلى حد بعيد ما يرد في ملفات القضاء التي عرضنا نماذج عنها سلفا.

يذكر (ابن بطوطة) بأن "جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم (قدموا على منسا سليمان) ومعهم أمير لهم، وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطا كبارا... ويلتحفون في ملاحف الحرير، وفي بلادهم يكون معدن الذهب، فأكرمهم السلطان، وأعطاهم في الضيافة خادمة، فذبحوها وأكلوها، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها، وأتوا السلطان شاكرين. وأُخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك، وذكر لي عنهم أنهم يقولون إن أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي." (ص.٦٩٣)

إن الإصرار الممنهج على "الأكل" هنا، مع ما يرتبط به من طقوس (تلطيخ الأيدي والوجوه بالدم/ قارن ذلك مع ما كتبناه عن الأعضاء المفضلة للمفترسين وكذا شرب دماء الضحايا في المبحث السابق) يخفي نوعا من الحساسية المكبوتة/المتفجرة في نفس الآن، لأن أطيب ما في "الآدميات": الكف والثدي؟ فهذا السلوك، يجرفنا نحو منطقة مظلمة تحتاج إلى بعض التوضيح ورفع اللبس، لأنها تورطنا في "هوية" المأكول؟

لا يعود الأكل هنا - رغم اختلاف محطاته - لرمز الانتقام، لأن هوية الفريسة ليست من الأعداء. كما أن رمز الجوع لا يمكنه تبرير مثل هذا السلوك "الاحتفالي". فالسلطان، وإكراما للضيف، يقدم فريسة بشرية (أنثى). والضيف يفرح بهذا المستوى المرموق من الحفاوة، فيلهج لسانه بشكر السلطان. تماما كما لو أن الأمر قد انصاع لضوابط اجتماعية/نفسانية محبوكة تحدد لكل طرف اختياراته وواجباته: اللذة هنا متعة متبادلة تؤطرها الرغبات والواجبات، فالسودان "أكلة بني آدم" قد أدوا ما عليهم من التزامات تجارية (جلب الذهب للسلطان) ورغباتهم الاستمتاعية تتلخص في احتفال أكل الآدمي. رغباتهم هذه بالنسبة للسلطان التزامات: واجب الحفاوة بالضيف يعني تقديم وجبة "الآدمي"، ومتعته تكمن - فضلا عن العائد التجاري الذهبي - في رؤية هذا المشهد الغريب/الطريف، الذي يعجز هو وقبيله عن فعله، والذي يتلخص في الآدمي الذي له هذه القدرة الغريبة التي تشذ عن سنن الخلق، قدرة الآدمي على "افتراس" آدمي آخر، فقط للمتعة. (تماما كما كان يجري في حلبات المصارعة الرومانية: القتل من أجل القتل، أو بالأحرى من أجل متعة الأسياد).

الدافع المحرك المنصوص عليه هنا - ضمنيا في المحيط الذهني للإخباري - مختلف تماما عن الدافع في الظرف الآخر الذي يستوجب، أو بالأحرى يجيز، افتراس الآدمي، ونقصد به ظرف المجاعة (الذي سنعرض له لاحقا). وكما أن الدافع مختلف "فاللحظة" التاريخية للسلوكين مختلفة، رغم أن فعل الأكل واحد، "اللحظة" التاريخية هنا (في حال اللذة) سريعة، قصيرة، تعبر عن سلوك آني/دموي/حاسم/عنيف/متغطرس/عدواني... بينما "اللحظة" هناك (في حال الجوع) بطيئة، طويلة، تعبر عن سلوك متأن/ متردد/ مضطر/ كاره....

واقعة الافتراس في الحالة الأولى اختيار، وفي الثانية اضطرار، وفائض عن الحاجة القول بأن الحالتين، ومن ثم الإحساس المشخص المتوثب عنهما، يقفان على طرفي نقيض. هذا التفاوت المسجل على مستوى الإحساس الداخلي:

إغراء ← لذة ← راحة من جهة، وانتباذ ← اقتراف ← عذاب

من جهة ثانية، يحيلنا على منظومة سلوكية/ثقافية لدى كل مجموعة بشرية، هي القادرة، وحدها، على فك شيفرة هذا التناقض الغامض.

المعروف أننا نتحدث عن "الأكل" — فعلا وممارسة — ونحن نعني به عملية المضغ والبلع وإفناء الطعام من أجل بقائنا نحن، دون أن نقف في الغالب على فعل الأكل كممارسة مرحلية دقيقة إلا فيما ندر. وحالة "الما ندر" هاته هي التي تهمنا في موضوعنا هذا. فإذا استحضرنا المقصود من "الأكل" فهمنا المغزى من هذا التمييز، وتجنبنا الوقوع في الخلط بين وضعيتين متباينتين رغم أن "الفعل" واحد.

الوضعية الأولى تتكون من حالتين متعاقبتين مترابطتين، تترتب إحداهما عن الأخرى بالقوة الجبرية للطبيعة: ففعل البقاء يترتب عن فعل الأكل، العملية فيزيقية متلازمة وإلزامية في آن واحد، بينما الوضعية الثانية تتكون من حالتين متزامنتين بينهما ارتباط حسي متلازم لا إلزامي، ففعل المتعة والانتشاء أو "اللذة" يتزامن مع فعل الأكل، والعملية شعورية متلازمة لا إلزامية قطعا.

اتضح الآن، فيما نعتقد، أن موضوع افتراس الآدمي (نموذج أكلة بني آدم) لا علاقة له بالوضعية الأولى، الفيزيقية، بل يدخل ضمن الوضعية الثانية في قاموسنا التصنيفي للأكل ورموزه.

الأكل المنوه به هنا فعل افتراس بامتياز، شبيه إلى حد ما بافتراس إناث بعض العناكب للذكور بعد عملية التزاوج. يسجل الرحالة المغربي، على لسان أحد رواته، أن الجنس المفضل لهؤلاء السودان، هو الأنثى الناهدة، لأن المتعة — متعة الافتراس — لا تتحقق كاملة إلا بافتراس الكف والثدي، لا وصول لحالة الانتشاء القصوى، حالة الوجد التام، دون افتراس الأعضاء المنشودة، أو جزء منها على الأقل. محظوظ من تتهيأ له فرصة افتراس آدمي، أنثى، كفها أو ثديها بالذات... هل هي حالة من الإدمان؟ وهل هذا يساعدنا على فهم سلوك "المفترسين الآدميين" الذين يعيشون بيننا في الوقت الراهن، والذين قدمنا نماذج عنهم في المبحث السابق؟

ربما، لكن من الصعب أن نقطع، بكامل الثقة، بالجواب. رغم أن الاعتبارات الشمولية على الأرجح تجنح نحو الإجابة بالموافقة، تماما كمدمن نوع معين من المخدرات أو السجائر... قد يقبل على أي نوع في حالات معينة، لكن متعته الكاملة لا تتحقق إلا بحضور نوعه المفضل. ويمكن طبعا وضع الحالة في بعدها الزمني المتكرر، مما يتطلب تكرار السلوك كلما تكرر التوتر والرغبة، وكلما ألحت حالة القلق، أو ما نسميه "الجوع النفسي" الذي، بحكم ماهيته، يستدعي افتعال جملة من الطقوس والسلوكيات (تلطيخ الأيدي والوجوه بالدم)، بالإضافة إلى شحنة الافتراس المادي لتحقيق "شبع نفسي" أيضا.

تتأجج الرغبة وتتقد، بازدياد ما نعتناه "بالجوع النفسي"، وكلما ازدادت الرغبة تأججا وتوقدا كلما كانت النكهة ألذ عند حصول الافتراس.

تقدم قضية الافتراس هنا — في مشروعنا المستند إلى مجموعة من الرموز — على أنها أداة لتحقيق "اللذة"، أو إذا عكسنا الموقف، للحصول على سبب ومسبب نقول بأن رمز "اللذة" تم تنصيبه في تحليل هذه الواقعة التاريخية بالذات — وغيرها مما تشابه معها — لكي

يكون مسؤولا عن تفسيرها ، وهي مسألة قد تستعصي على الخطاب التاريخي التقليدي في صورته المكثفة المثقلة بالعناصر الفاعلة مما يؤدي إلى تعويم التفسير في النهاية وبالتالي سيادة الإيحاء على الملموس.

أجل ، "رموز السلطة" أيضا قد تتفاعل لإنتاج حدث تاريخي ما ، لكن تفاعلها يختلف عن تفاعل التعميمات السياسية/الاقتصادية/الاجتماعية... التي درج التحليل التاريخي التقليدي على استعمالها كميكنزمات لتفسير الأحداث والوقائع التاريخية. تفاعل "الرموز" الذي نعنيه يشبه تفاعل الجينات من أجل إنتاج البروتينات في المادة العضوية ، بصورة محكمة البناء متقنة الهيكلة ، تبدو – لشدة إتقانها – مستعدة لاستيلاد أو تكرار ذاتها في ظرفيات ووضعيات مختلفة ، هكذا فاللذة مثلا تخترق الزمان والمكان لاستعادة فعل الافتراس في أزمنة وأمكنة مختلفة.

ليس من قبيل الصدفة أن يروي الرحالة المغربي – ابن بطوطة – قصة القاضي المنفي ببلاد "أكلة بني آدم" ، قد تكون القصة كلها ملفقة مختلقة ، لكن ما يشدنا إليها هو جزء القصة الذي يحكي عودة القاضي ، بعد أربعة أعوام ، من منفاه حيا يرزق ؟

عبر تدقيق الخط البياني للرواية يفضي التحليل في النهاية إلى رمز "اللذة": الأبيض (يساوي) غير اللذيذ (أي) الذي لا يؤكل لحمه ، أكثر من ذلك هو مضرّ بالأبدان ؟

قلنا بأن "اللذة" تخترق الزمان والمكان لاستعادة فعل الافتراس في أزمنة وأمكنة مختلفة ، تتجسد مرة في بلاد السودان (بلاد الغابات) في كف وثدي وأنثى ، بينما تسطو في التلنك (ببلاد الهند) على قلب صبي. كلما تعلق الأمر باللذة ، تعلق بالخصوص بمنظومة "عضوانية" قائمة بذاتها لا مناص من افتراسها حتى تكتمل النشوة: كف وثدي وأنثى بالسودان ، قلب وصبي بالهند (نثير هنا للمقارنة مفهوم "التأثير" Affectivitéعند كانط E Kant ("نقد ملكة الحكم" ١٧٩٠م) بمعنى الصفة التي تملكها الأشياء للتأثير على الحواس).

سلوك الافتراس ممنهج إذن في الحالتين (جماعة السودانيين "أكلة بني آدم" وطائفة السحرة "الكفتار") فهل من معنى لهذه الاختيارات المدققة حول الفريسة وأعضائها المفضلة بالدرجة الأولى ؟

واضح ، بما فيه الكفاية ، ألا علاقة نوعية بين الصبي (بإطلاق) والأنثى (بإطلاق أيضا) ، بين القلب والثدي... أي أن الأعضاء ، أو حتى الفرائس ، ليست مفضلة لذاتها ، لميزة فيها ، بمعنى آخر أن الأنثى ، ولا حتى كفها أو ثديها ، يعني شيئا "للكفتار" ، كما أن الصبي ، بقلبه ، لا يعني شيئا "للسودان" ، صحيح هو فريسة ، تؤكل نعم ، لكنها ليست مفضلة هنا ، كما أن الأنثى ليست مفضلة هناك.

نخلص إذن إلى أن نوعية الفريسة ، ونوعية أعضائها المحققة لأكبر قدر من اللذة ، مصاقبة لمنظومة ثقافية ترتبط "بالذوق الجماعي العام": فكما تفضل بورجوازية هونغ كونغ رؤوس القطط ، يفضل علية الأتراك مخ القردة الطازج ، وبينما يفضل الفرنسيون فخذ الضفادع ، تفضل بعض ساكنة شمال أفريقيا أكل الحلزون ، وهكذا... فما يصح هنا لا يصح هناك بالضرورة ، رغم أن الرمز الموحد الجامع واحد هو "اللذة" ، والفعل واحد أيضا هو "الافتراس".

على أن الأمثلة المقدمة هنا ، لا تعدو أن تكون أمثلة لإبراز شكل الذوق الجماعي العام ، ولا مجال لمقارنتها بموضوع بحثنا ، ليس لأن نوع الحلزون يختلف عن نوع الضفادع أو القردة أو القطط... فقط ، بل وأيضا ، وهذا هو الجوهري والأساسي ، لأن الآدمي هو الفريسة والمفترس في نفس الآن.

الحاصل إذن أننا نتموقع أمام سلوك تأقلم مع منظومة ثقافية انتقائية. يبدو الافتراس في حالة التلنك ممارس في سرية تامة ، رغم أن طائفة "الكفتار" معروفة لدى عموم سكان الهند بهذا السلوك ، بينما يبدو في حالة السودان علنيا ومفضوحا ، بل وبتواطؤ وتأطير من السلطة ذاتها ، فيجاهر الأكلة بسلوكهم ويشددون على الأعضاء المفضلة لديهم. فالعملية هنا معتادة ومتكررة ومتواترة حسبما نص عليه الرحالة المغربي. وبما أن نفس الرحالة هو الذي قص علينا ، وهو قاض بالهند ، خبر المرأة "الكفتار" ومن قبل قصة الرجل الذي يأكل الآدمي أثناء مجاعة ، فلعلنا لن نبعد عن الصواب إذا استنتجنا أن سلوكيات الرحالة قد تعدلت مع الوقت وكثرة التجوال. شاهدنا على ذلك التغير الذي طرأ عليه في أسلوب الحكي ، فبينما يختم قصته عن الرجل أثناء المجاعة – وهو القاضي كما سننصص على ذلك لاحقا عند تحليل رمز الحاجة – بالاستعاذة بالله من سلوك الافتراس ، يعرض علينا بعد ذلك قصة "الكفتار" وقد تحولت في ذهنه إلى ما يشبه "المألوف" ، ثم – وبعد سنين عديدة وفي مجال آخر – يروي لنا ما شاهد ، وما قص عليه ، ببلاد السودان عن أكلة بني آدم ، والأسلوب هذه المرة أميل إلى الطرفة والاستفاضة في الإمتاع.

لا يتعلق الأمر إذن بمجرد افتراس آدمي ، بل هناك تطلع مشرب بالانتقائية لتحقيق اللذة الكاملة ، لذا ينفرد السلوك بالإحالة على ما يمكن نعته "بأخص الأخص" المنبث عبر الثدي والكف ، والمرتكز على طقوس معينة تعكس هذه الخصوصية. "فالأعم" هو افتراس الآدمي ، و"الأخص" هو أن يكون هذا الآدمي أنثى ، و"أخص الأخص" هو افتراس ثديها أو كفها بالذات ، مع ما يرافقه من تلطيخ الوجوه والأيدي بدم الفريسة. فماذا يعني هذا التسلسل في المراتب ؟ وعلى أي منطق يستند ليتحقق على أرض الواقع ؟

إذا عدنا إلى الوراء قليلا ، في قراءة استطلاعية لما سجلنا بخصوص واقعة الافتراس ببلاد السودان ، أمكننا رصد عناصر الإجابة ، أو لأجل توخي الدقة ، عنصري الإجابة:

أولا: في مدلول ما نعتناه "بالذوق الجماعي العام" نكتشف خطاطة التسلسل في مستويات اللذة. وسنرى عند حديثنا عن "الثأر" أن هناك مستويات للشعور تحقق وترصد من خلال السلوك.

ثانيا: لا يتعلق الأمر بافتراس استثنائي أو ظرفي كحالة المجاعة أو الثأر مثلا ، بل بحالة متكررة متجددة حصلت على اعتراف رسمي وتزكية سلطانية ، فأصبحت تنعم بالتموين والحماية ، وهي لذلك لا تتورع عن المجاهرة بالافتراس ، ولا يفتأ المفترسون يطالبون ، أو على الأقل ينتظرون "الوليمة" عند كل زيارة. أما المجتمع الذي يقع فيه الافتراس فلا يعبأ بالتبرؤ منه أو رفضه مع ما يواكب ذلك من "لا مبالاة جماعية".

هذه ثنائية الجواب الثابتة ، التي شرعت ونفذت للسلوك ببلاد السودان ، بينما يختلف الأمر قليلا ببلاد التلنك ، بحكم أن الافتراس غير مشرعن له من طرف السلطة ، لذلك فهو المضمر/المكشوف في آن واحد ، المستتر عبر ممارسات "الكفتار" ، المتكتّر بكثرتهم ، وهو لأجل ذلك مكشوف للعموم ، مستعص على البتر رغم انكشافه ، جاثم على المجتمع ، متربص بقلوب أطفاله ، كأنه قدر محتوم ، وأقصى ما يمكن أن يقوم به المجتمع كرد فعل ، هو اللجوء للقضاء ، بعد وقوع "الافتراس" وليس قبله ، لإنزال العقاب على "الجاني". وبما أن هذا

الجاني ليس نشازا ، حالة شاذة ، بل طائفة معروفة – تزاحمها أحيانا على السلوك نفسه طائفة أخرى معروفة أيضا هي "الجوكية" – فإن المجتمع يقنع نفسه "بالنسيان" ، في انتظار افتراس جديد.

"أكلة بني آدم" في بلاد السودان لا يتورعون عن المجاهرة بسلوكهم أمام الجميع ، فسلوكهم اكتسب الشرعية من المجتمع والسلطة الرسمية. "طائفة الكفتار" في بلاد الهند ، معروفة لدى الجميع ، إلا أنها لا تجرؤ على المجاهرة بسلوكها ، فهي لا تملك الشرعية لإظهاره على الملأ. من هنا ، علينا أن ندرك أن ما يمنع "المفترسين" المعاصرين - الذين يعيشون بيننا - على الظهور (تنظيم أنفسهم في جماعات معروفة) هو خوفهم من العقاب لا غير: فسلوكهم غير مشرعن له من طرف مجتمعاتهم الحاضنة.

لكن في الهند كما في السودان ، كما في وقتنا الراهن ، ورغم الاختلافات الهيكلية في تشييد السلوك ، فإن السمة القارة الدالة على الدافع أو الحافز ، تحيل على رمز "اللذة". اشتقاق السلوك في جميع الحالات واحد ، رغم اختلاف المجتمع الحاضن ، رغم اختلاف التوترات الظرفية ، رغم النفور الجماعي المترائي ، كالسراب ، خلف الفعل المتطرف الدامي ، رغم المضاعفات التي تنجم عن الصمت المتواطئ ، الرسمي أو الشعبي ، إزاء هذا السلوك... فالحافز واحد أوحد ، لا يكاد يقلق راحته أحد ، يرتقي فوق الجميع ، دون أن يكلف نفسه حتى القليل من المناورة أو المداراة ، يختبئ في الأعماق النفسانية خلف منشطات عاطفية وجدانية ، يحتفظ بصفاء مواصفاته "الهوهوية" كمحفز مرجعي أولي قابل للتكيف مع وضعيات مختلفة ، متوثب باستمرار ، في انتظار أن يُفجّر فعل "الافتراس".

للمزيد من الاطلاع

- صنف الأطباء السيد كرايو Garayo معتوها ومختلا عقليا – في ق.١٩م – نتيجة صدمة في دماغه وزواج تعس. كان "كرايو" يخنق النساء ، غالبا العوانس ، ويأكل أشلاء من أجسادهن ، وكانت الحالة تنتابه خصوصا في فصلي الشتاء والربيع.
- أندري بيشيل André Bichel ، كان يغتصب الفتيات ، يضربهن حتى الإغماء ثم يقوم بشق صدورهن: "أثناء العملية كان ينتابني شعور عنيف بقطع بعض الأجزاء وأكلها" اعترف قائلا.
- السيد Léger - ٢١ سنة – اغتصب فتاة عمرها ١٢ سنة ، ثم مزق أعضاءها التناسلية ، وانتزع قلبها وأكله ، ثم شرب دمها قبل أن يقوم بدفنها.
- الراهب والأب الإيطالي Giuseppe Cravero اعترف سنة ١٩٧٣م بأنه أكل مع هنود برازيليين في ريو نيكرو Rio Negro لحما بشريا مطبوخا ، وعلل ذلك بقوله: "عندما يكون لنا أصدقاء يجب أن نتقاسم معهم أفراحهم وأحزانهم" ، بل إنه قدم وصفة لما أكله: "يطبخ اللحم الآدمي لمدة طويلة حتى يفصل عن العظام ، ثم يفرم بعد ذلك ويترك جانبا. تحضر عصيدة من الموز تخلط مع الرماد الآدمي. تخلط جميع العناصر لتكون عجينة تدلك جيدا وتقدم للأكل."
- في سنة ١٦١٠م ضبطت "كونتيسة باتري La Comtesse de Bathory " وهي تستمتع داخل حمام من الدم. هذه "السادية" نحرت ٦٥٠ فتاة من خادماتها لتأكل بعض لحمهن وتشرب بعضا من دمهن قبل أن تستمتع داخل حوض "حمامها الدموي" ، هذه كانت هوايتها المفضلة ، وكانت تقوم بها كل مرة تحن إليها.
- في عام ١٩٨٩م ، بضواحي نيويورك ، أكل دانييل روكوفيتز Daniel Rokowitz صديقته مونيكا بيرل Monika Beerle ، بعد قتلها: "طبخت الرأس ونزعت المخ وحضرت منه حساء ، كان طعمه لذيذا".
- في ١٩٩٦م أوقفت شرطة بنوم بين Pnom Penh (كمبوديا) طباخا اتهم بقتل مواطنة سويسرية وصنع من لحمها حساء تقليديا ، وتم العثور على أرجل الضحية في مكان الزبالة.
- في يناير ١٩٩٤م أعدمت السلطات الصينية المفترس هاو كاي Hao Kai بتهمة قتل ثمانية أفراد وانتزاع أمخاخهم وأكلها ، وهو ما اعترف به المتهم أثناء التحقيق مضيفا بأنه أكلها مع بعض التوابل.
- دمبا أبو Demba Abou ، غيني في الثلاثينيات من العمر ، قبض عليه في شتنبر من سنة ١٩٩٥م لأنه قتل فتاة وصنع من لحمها شواء. أكل البشر هذا أصله من كينديا Kindia (١٥٠ كلم شمال غرب العاصمة كوناكري). احتجز ضحيته عندما كانت في طريقها إلى السوق (المقام بقرية مجاورة) ، اغتصبها ، ثم أكل خديها نيئين. بعد ذلك بقر بطنها وانتزع الكبد وقطعه على شكل مكعبات صغيرة بهدف شوائها ، لكنه لم يستسغ الطعم ، فأخذ ساطوره واقتحم على بعض الجيران منازلهم وطلب منهم بعض الملح والمتبلات ، ثم عاد إلى وجبته والتهمها عن آخرها قبل أن يمسك به الأهالي ويسلموه للشرطة.
- كيوم بوتيي Guillaume Potiez شاب بلجيكي (٣٢ سنة) من أصل بورندي ، قتل في دجنبر ١٩٩٤م صديقه فيليب فان دير شتارتن Philippe Van der Starten (٣٨ سنة) وقطع من الجثة قطعا ابتلعها نيئة.
- أوقفت الشرطة (١٩٨٩م) في لوساكا (بزامبيا) رجلا قام بشيّ رضيع (أربعة أشهر) وأكله بعد أن اختطفه من أمه. بعد التحقيق معه تبين أنه خرج من السجن توا بعد أن قضى فيه خمسة أعوام لأنه كان قد أكل أحد أطفاله.
- في الكوت ديفوار حكم بثلاث سنوات ؟[9] نافذة على مفترسين آدميين في سنة ١٩٩٧م ، حسب زعمهم هم لا يأكلون الحم الآدمي أبدا ، لأنه قبل الأكل كانت لهم قدرة غريبة على تحويل ضحاياهم (الخمسة والثلاثين) إلى "أغوطيات" (الأغوطي حيوان شبيه بالأرنب).
- بسوازيلاند (جنوب أفريقيا) أمسك أحد السحرة طفلا عمره ١٢ سنة وربطه إلى جذع شجرة عند بحيرة بحيث يغوص كل الجسد إلى العنق. كان ذلك ليلة رأس السنة (عام ١٩٤٩م) ، واستمر يطعمه لمدة تسعة أشهر ، "حتى يصبح الجلد أبيضا" – كما اعترف الساحر أثناء التحقيق وفي نهاية شتنبر ١٩٥٠م قام بذبحه وتقطيعه إلى أجزاء لتحضير يخنة Ragout سحرية ، قدمت لأحد عشر ثريا اشتروها بثمن باهظ.

د.عبد العزيز غوردو في سطور:

باحث وكاتب مغربي من مواليد بوجدة عام ١٩٦٤. أستاذ المناهج والتوثيق بكلية الآداب_وجدة. عضو معهد التاريخ والحضارة. عضو مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. عضو المكتب التنفيذي لمركز الأبحاث والدراسات في المجتمع المدني والمناهج التربوية.

٩ - ثلاث سنوات في الكوت ديفوار ، خمسة عشر سنة في حالة المهندس الألماني: ترى ماهي العقوبة المثلى للافتراس الآدمي ؟